أثر اللغة فى الشؤون الاجتماعية

لحضرة صاحب المعالى محمد توفيق رفعت باشا
رئيس مجمع فؤاد الأول للغة العربية

إذا كان صحيحا أن للغة أثرا غير قليل فى شؤون الحياة الاجتماعية ، فصحيح أيضا أن لكل شأن من هذه الشؤون أثرا غير قليل فى اللغة . وذلك أن اللغة ما تزال تتتبع طوارئ الحاجات وتحرى دواعيها ، ثم لا تنصرف عنها إلا بمغنم من الأوضاع والتسميات المستحدثة ، فإذا استدعتها بعد ذلك حاجة طارئة أجابتها من هذه الأوضاع والتسميات بما تطلبه بعد أن تكون قد طبعته على غرارها .

فمجال اللغة فى الشؤون الاجتماعية هى أبدا حال أخذ وعطاء : هذه الشؤون تظهر الحاجة وتدل على الضرورة ثم تقتضى من اللغة أن تمكنها من وسيلة التعبير عنهما وتيسر لها أداة التفاهم فيهما ، واللغة تتناول هذا الذى يتجدد من حاجات وضرورات فتلبسه من عندها ثوبا يساويه وتعطيه من ذخيرتها اسما يطابقه أو تعبيرا يدل عليه .

وفى القديم دليل على ذلك لا ينكر ولا يرد . فحينما كانت شؤون الجماعة مقيسة بحاجاتها القليلة ، كانت اللغة تقوم لهذه الشؤون بكفايتها من الألفاظ والتعبيرات ، وكانت تسخو لكل شأن بما يؤدى إلى المتخاطبين أغراضهم من معانى الحقيقة والمجاز . فلما استفاضت مطالب الجماعة واستجدت لها حاجات ، كان لابد أن تسعفها اللغة بما يتيسر به التفاهم على هذه المطالب والحاجات . وهنا اتسع صدر العربية للدخيل حينا ونزعت فى الأحيان الكثيرة إلى أصولها تشتق منها الدوالّ من الأوصاف والأسماء بعد أن تطبع فيها حكم ضوابطها المقررة .

وقد صح عند الناس أن اللغة كائن حى . فهى بذلك تنتقل ، مع اختلاف الزمن والإقليم والبيئة ومع تدرج الحياة ؛ من ضيق الى سعة ومن سعة الى ضيق ، بين أطوار لا تنتهى .

وتمثيلا لذلك نفرض أن أنواعا من المنافع المادية أو المعنوية دخل بها اجتهاد العقول على شأن من شؤون الحياة. فكيف يكون موقف اللغة من هذه الأنواع الطارئة ؟ إنه لايكون شيئا غير أن يعطى كل نوع مطلبه من الألفاظ والتعبيرات ، وأن يمكن أهل النظر فيه وأصحاب العناية به من أسباب البيان والإيضاح . ولكن وسيلة اللغة الى ذلك انما هى وسيلة الشريك الذى لا ينفرد بالعمل . فكلما اقتضت الضرورة حاجة من الحاجات الاجتماعية ، مدت يدها الى اللغة بهذه الحاجة لتصنع لها من الألفاظ ثوبا على قياسها ، وكلما ارتفعت شؤون الاجتماع درجة فى سلم الرقى ، أو كلما اتسعت ثروة ونماء وازدادت بهجة و جمالا ، عادت اللغة من ذلك بالنصيب الجزيل والذكر المحمود .

على أنه لولا التعبير والبيان لما استطاعت الحضارات الإنسانية أن ترفع عن نفسها حجب الخفاء ، ولولا اللغة لتعطلت أداة التعبير ولبقيت الألسن معتقلة وراء الشفاه . فأثر اللغة فى هذه الحضارات أنها أعربت عنها ثم قامت على حفظها مقام الحارس الأمين ، وأنها قبل هذا الإعراب والحفظ مهدت لها سبيل الحياة فأبرزت عناصرها الى الوجود ثم حملتها الى العقول والأفهام ثم صحبتها حتى صارت أركانا قوية ثم أقامت هذه الأركان القوية حتى صارت بناء ضخما .

وانا لنستطيع بأقل نظر فيما حولنا أن ندرك ما للغة فى شؤون الحياة الاجتماعية كافة من أثر بعيد الغور . فلنسأل أنفسنا كيف كانت حال الإنسانية تكون لو أن الناس اختزنوا فى صدورهم من أول الأمر هذه العلوم والفنون والآداب وقواعد المال والأخلاق والاقتصاد ثم لم يجدوا من اللغة معينا على أن يؤديها بعضهم لبعض ؟ وأهون من ذلك فى موضع السؤال أن ننظر الى معلم المدرسة وخطيب النادى ومؤلف الكتاب ومحاضر الجماعة وكاتب الصحيفة وكل من يريد أن يعرب عن شىء فى نفسه الى آخرين . فأية حيلة كان هؤلاء جميعا يستطيعون أن ينفذوا بها الى الأذهان والقلوب لولا هذه اللغة التى تجرى بها الألسنة فى الأفواه ؟ ومن وراء هذا العجز المشاهد وهذه الاستحالة الظاهرة يأتى الاعتراف بفضل اللغة على الحياة و بوجوب تيسير اللغة وتغذيتها وتنميتها لتنطبق على أحوال الحياة .

لم تكن اللغة قط غاية تراد لذاتها ، ولكنها كانت وستبقى أبدا وسيلة الى التعبير الدقيق والتفاهم الصحيح ، فلا يجوز أن يبقى شىء فى الدنيا بلا اسم يدل عليه بحجة أن أصحاب اللغة لم يعرفوا هذا الشىء ولم يسموه . ومن الخطأ أن نعتبر اللغة أثرا جامدا تجب المحافظة عليه كما تركه صانعوه ، فالعقل البشرى دائم الحركة والتنقل والتقدم واذا تخلفت عنه اللغة فى الطريق انقطعت الصلة بينها و بينه وتعذر عليها اللحاق به وعجزت عن أن تقوم بالمهمة التى جعلت لتقوم بها وهى مهمة التعبير والتفهيم .

ولست أتبين وجه الصواب فيما يذهب اليه البعض من أن باب الاجتهاد فى اللغة قد أقفل . فابواب الاجتهاد لا تقفل ولا يجوز أن تقفل والا كان معنى ذلك تقييد العقل الانسانى والحد من نشاطه وهذا أمر لا يقول به عاقل ولا يرضاه قوم يريدون لغتهم على أن تماشى المدنية فى ميادين تقدمها ورقيها .

وإنى اذ أتكلم عن الاجتهاد لا أعنى الفوضى والاباحة وحكم الجهال وتحرر الأدعياء وما الى ذلك مما يخرج اللغة عن طبيعتها ويحو طابعها و يقطع الصلة بين ماضيها وحاضرها ، وانما أعنى الاجتهاد المنظم فى الحدود التى تحفظ كيان اللغة وأصولها . وما أسس مجمع فؤاد الأول للغة العربية الا ليؤدى هذه المهمة السامية ويبلغ هذه الغاية العزيزة .

واذا أردنا أن نخص العربية الشريفة بفضل لا يجحده أصحابها ولا ينكره عليهم المنصفون فانا نأمن اللائمة حين نقول إنها كانت ولا تزال أسخى وأبر من غيرها ، وإن ما ينسب اليها من القصور ليس صفة لها ولا طبعا فيها ولكنه صفة أهلها فى بعض أيامهم وطبع الزمن فى بعض عصوره . وحسب السماحة أن تلين هذه اللغة على كل لسان وأن تصفو فى كل صدر فلا تلبث أن يطلبها الذوق فتجيبه و يستقضيها العقل حاجته فلا ترده ، وحسبها غنى أنها لا تبخل بشىء على مسترفد وأنها تلبى الى أصحابها ما يشاءون كلما عادوا اليها يستولدونها كلمات وأسماء لكل جديد تستدعيه منافع الحياة .

ورجاؤنا المنجز الصدق إن شاء الله أن تنزل اللغة العربية عند القائمين على شؤون الإصلاح الاجتماعى منزلة الكرامة والتقدير ، فانهم أغنى بالمعرفة ونفوذ البصيرة من أن يفوتهم أن الناس لا يزالون يرون كل أمة فى مرآة من لغتها .

سدد الله خطى العاملين ، ورزقنا وإياهم نعمة التوفيق فيما نفعل ونعمة الإخلاص فيما نقول .

محمد توفيق رفعت